صفحة من تاريخ الاستكشاف :

فيتـــوس بيرنج

VITUS BERING

للأستاذ محمود عزت عرفة

بطرس الأكبر بين حربين

شهدت أخريات القرن الخامس عشر خرستوف كولمبس يضرب فى أرجاء المحيط الأطلنطى غربا ، على أمل أن يبلغ الهند من طرفها الشرقى فيثبت صحة النظرية التى آمن بها من استدارة الأرض . وكان بسبيل أن يحقق نظريته هذه لولا أن اعترضته أمريكا بهيكلها العظيم ، فبقيت نظريته معلقة — بل وقابلة للجدل! — حتى قدّر للجلان أن يثبتها عمليا برحلته المشهورة فيما بين عامى ١٥١٩ و ١٥٢٢ م .

ومن ثم تتابعت الرحلات فى كل متجه ، وعرف الناس عن أمريكا الشىء الكثير ، حتى وافت أيام بطرس الأكبر — عاهل روسيا وسليل أسرة رومانوف[1] — فحاكت بصدره مشكلة آلى على نفسه أن يضع لها حلا ... مشكلة عاضلة يتعلق بها مستقبل بلاده ، ويتوقف عليها مجدها وعظمتها واستقرار شعبها هادئاً — مدى أجيال — فى حدود امبراطوريته التى تباعدت أطرافها ...

وكان بطرس قد شنّ على السويد حربا ضروساً انتهت بعقد معاهدة نيستاد فى أغسطس من عام ١٧٢١ ؛ وبها ضم إلى بلاده دويلات من البلطيق أمّن بها حدودها وعزز ركنها فى اتجاه الغرب فراح بعد ذلك يتلفت إلى الشرق ... إلى أطراف سيبريا المطلة على محيط مجهول يتكنفه الظلام والضباب .

ورأى بثاقب فكره أن لابد من النفوذ إلى أعماق هذه المواضع قبل أن تمد السبيل عليه فيها دولة مستعمرة ، فيقف منها أمام « سويد » أخرى تقتضيه حرباً لا يعلم إلا الله نتيجتها .

... ألا ماذا فى نهاية الطرف الشمالى الشرقى من آسيا ؟..

... أهى ممتدة شمالا إلى مدى غير معلوم ، ... أم ثمة انفصال تبدأ عنده أمريكا من حيث ينتهى العالم القديم ؟

سؤال تقدم به بطرس إلى الطبيعة نفسها لا إلى عدو أو صديق من البشر ، ومعضلة ينبغى أن يحلها رحالة مستكشف لا قائد محارب . وللطبيعة سر لا تسلمه إلا لمن ينتصر عليها ؛ والانتصار على الطبيعة غير المحدودة ولا المتناهية ... الطبيعة ذات الأسرار الرهيبة والمفاجآت المربكة والقوى المحتشدة الكامنة التى تعصف بقوى الإنسان قبل أن يشعر بمجرد وجودها ، فضلا عن أن ينهض إلى خصومتها — الانتصار على هذه الطبيعة — وتلك صفاتها — غير الانتصار على كتيبة من جند السويد ، أو نشر شباك مكيدة حول تركيا ، أو انتهاز فرصة اضطراب داخلى فى بولندا ...

وكان بطرس ممن يحسنون تخير الرجال . فليس يزكى التاريخ « فيتوس بيرنج » بأكثر من أن يسجل أن بطرس قد انتقاه لمهمة خطيرة كانت شغله الشاغل وهو يجود بآخر أنفاس من حياته ... مهمة مات بطرس — كنحوينا المعروف — وفى نفسه منها شىء !

وكان بيرنج من أبناء دنمركة . ولد فى هورستنز Horsens عام ١٦٨٠ ، وتقلب فى أحضان البحر منذ صباه فنشأ بحاراً بالسليقة إن صحت العبارة ..

وقد زار المحيطين الأطلسى والهادى قبل أن يلتحق — وهو فى الثالثة والعشرين من عمره — بالأسطول الروسى الحديث الذى أقام دعائمه بطرس الأكبر . واشترك بيرنج فى الحرب البحرية ضد السويد فأبلى البلاء الحسن ، وكان من أثر ذلك أن قرر القيصر إيفاده على رأس البعث الذى أعد لكشف مجاهل شرق آسيا وما يكتنفه من مياه . ولم يحل دون ذلك ما كان من مرض بطرس (الذى انتهى بموته) ، ولا ما حدث من اضطراب فى الأحوال الاقتصادية على آخر عهده .

(١) ولى الحكم فى روسيا بين عامى ١٦٧٢ و ١٧٢٥ م

ولقد كانت تلك فى الواقع أعجب رحلة كشفية يشهدها العالم ، منذ أن قام الفينيقيون فى عهد فرعون مصر « نخاو » بطوافهم المشهور حول القارة الإفريقية[1] .

عبر مجاهل سيبريا

كانت أرض روسيا خلواً من المسالك والطرق ؛ وسيبريا التى تشغل شطرها الشرق حتى المحيط لا تعدو أن تكون سهوبا مقفرة شديدة الإيحاش يسيطر عليها شتاء قاس رهيب لا تتبلج فى دهمته إلا عشر أيام من الصيف فتيلات قصار .

وكان على بيرنج أن يقود بعثته مدى ألف ميل خلال هذه الأصقاع الموحشة حتى يبلغ المحيط فيبدأ أعماله الاستكشافية ؛ وكان عليه أيضاً — إذا قُدر له أن يبلغ المحيط ناجيا — مهمةُ ابتناء السفن اللازمة لهذه الرحلة المخطرة . وإن من نكد الدنيا حقا أن ينوء هذا الرحالة الجرئ بعبء ستة عشر عاماً من الجهاد المضنى ، قبل أن يتاح له تقديم جواب صحيح عن ذلك السؤال المعجز لبطرس الأكبر . ثم هو لا يفرغ من ذلك إلا ليفارق حياته مبتئساً عليلا فوق جزيرة نائية ، بعد معاناة خطوب فوادح وأهوال جسام ...

غادر بيرنج مدينة بطرسبرج فى فبراير عام ١٧٢٥ م على رأس خمسمائة من الرجال ما بين بحار وقين وكاتب ونجار وصانع شراع ، وكان معهم ثمانمائة دابة تحمولة تقل ما يحتاجون إليه من المؤن والذخيرة ؛ وقد ارتفقوا بسائر ما يلزمهم عدا السفن نفسها ، إذ كانت مادتها الخشبية وقتذاك لا تزال جذوعاً ضخمة تتغذى وتنمو على الشاطئ الشمالى الشرقى من آسيا ، فى انتظار أن يأتى القوم فيقتطعوها ويصوغوا منها مطاياهم إلى البحر .

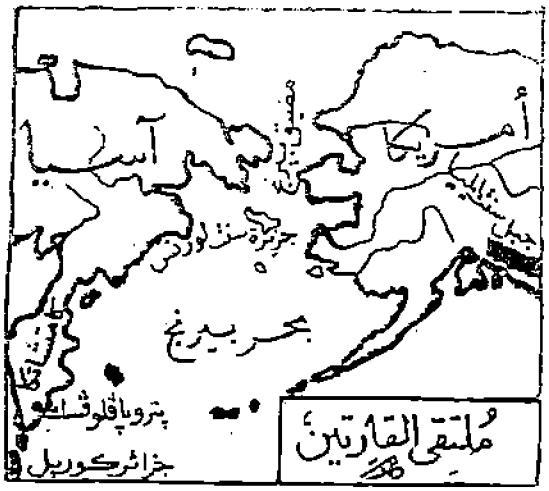

وكان على الركب الحاشد أن يقطع جبالاً شوامخ ، وأن يصنع لدى كل معبر نهر زوارقَ وأطوافاً يجتاز عليها من شاطئ إلى شاطئ ، ثم يخلفها وراءه تنعى من شادها . وقد قضى البعث شتاءه الأول فى أيلمسك Ilimsk الواقعة على مدى ثلاثمائة ميل تقريباً شمالى إركتسك Irkutsk . وما كاد يتبلج وجه الربيع حتى تابعوا مسيرهم خلال مستنقعات وغابات ومجار من الماء عميقة وجبال وعرة المسالك أدت بهم إلى بلوغ ياكتسك Yakutsk على نهر لينا ؛ وهناك ألجأتهم ضرورة النقل ومشقاته إلى أن ينقسموا أقساماً : فمضى فريق على رأسه سپانجبرج Spangberg فى أسطول صغير من الأطواف عبر المسالك المائية المنحدرة شرقا ، وتقدم بيرنج بطريق البر ومعه الجياد ومائتان من الرجال .. فى حين تبعهما الفريق الثالث عن كثب .

وبعد رحيل شاق مضنٍ استغرق سبعة أسابيع وصل بيرنج إلى أوخُتسك Okhotsk حيث اقتطع رجاله ما يلزمهم من الخشب لإنشاء السفن وتشييد أرياض الشتاء ..

أما سپانجبرج فقد قطع عليه البرد طريقه ، ونفقت ركائبه بفعل الجليد وانخفاض درجة الحرارة إلى السبعين تحت الصفر .

(١) ذكر هيرودوت أن نخاو — وقد حكم بين عامى ٦٠٩ و ٥٩٣ قبل الميلاد — أراد أن يعرف علاقة البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط ، فكلف جماعة من الفينيقيين أن يسيروا فى البحر الأحمر نحو الجنوب بازاء ساحل إفريقية الشرقى ، ثم يعودوا عن طريق أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) إن أمكن . فقاموا بتلك السياحة خير قيام ، ولكنها استغرقت منهم ثلاث سنوات ، لأن سفينتهم لم تكن تتسع لمقدار كبير من المؤن ، فكانوا ينزلون على الساحل كل خريف فيزرعون الأرض ثم يقيمون إلى ما بعد الشتاء حتى ينضج الزرع ، فيحصدونه ثم يقلعون — راجع « أساس الفلك والجغرافيا » للأستاذين محمد مفر الدين وعبد الفتاح الزيادى

ولم يتسل بيرنج إلا بعد انقضاء عامين كاملين فقد خلاهما ثمانية عشر من رجاله .

وكان بيرنج قد أنجز في هذه الفترة تشييد أولى سفائنه « ذي فرشونا » واستقل فيها مع رجاله و خاوره ومعداته إلى بُولْشِيرِتْسْك: Bolsheretsk في شبه جزيرة كامتشاتكا . وهناك أنشأ سفينته الثانية « جبرائيل » ، فاستنفد بذلك ثلاث سنوات وخمسة شهور في عمل متن وكفاح متواصل قبل أن يتهيأ له القيام بمهمته الرئيسية .. وهي التقصي عن خبر آسيا ومستدأ أمريكا ..

هذه آسيا .. فأين أمريكا ؟

في العاشر من يوليو سنة ١٧٢٨ أبحر بيرنج من كامتشاتكا ميمماً صوب الشمال ؛ والتقى في إحدى الجزائر الآهلة بمن أفضى إليه من سكانها بحقائق نفسه . فقد علم أن الساحل الأسيوي بعد امتداده نحو الشمال قليلا ينحرف إلى الغرب . وبذلك تمثلت لديه أول فكرة عن انقطاع آسيا في هذا الوضع واحتمال قيام أمريكا بإزائها . ومر بيرنج أثناء ذلك بجزيرة كبيرة أسماها سنت لورنس ، احتفاء بذكرى القديس الذي اكتشفها يوم عيده . وفي السادس والعشرين من أغسطس طاف حول رأس « إيست كيب » الواقع في أقصى الطرف الشمالي الشرقي من آسيا ؛ وتحقق لديه يومئذ أن اليابسة تنحرف نحو الشمال الغربي ، فتتبع ساحل آسيا الشمالي إلى مدى ستمائة ميل غرباً حتى بلغ خليج تشُوان : Tchuan Bay وعرف أن آسيا تنتهي حقيقة في هذا الموضع ، لكنه لم يعثر بعدُ على القارة الرعومة التي قيل إنها تواجه آسيا عبر المحيط ، والتي يحتمل أن تكون أمريكا نفسها . ولاذ بيرنج بسواحل كامتشاتكا طوال أشهر الشتاء ، ثم انطلق يبحث عن أمريكا في ربيع عام ١٧٢٩ متجهاً صوب الشرق . ولما أعجزه الوقوع على طلبته كر أدراجه عائداً إلى بطرسبرج ؛ وهناك قص حديث مغامرته العجيب فأثار ضده عاصفة قوية من السخرية والتكذيب .. عاصفة أنسته شدتها ماقاسى من عواصف سيبريا ، وهونت لديه ما لقي من قواصف المحيط ..

وكانت القيصرة كترينا التي خلفت بطرس الأكبر على عرش روسيا لا تقل عن سلفها طموحاً في الغاية ولا جرأة في العمل ؛ وقد أثر في نفسها ما لقيته مساعي بيرنج من إنكار وجمود وتجهما من الرجل شهامته ونبل سلوكه ، فأبت أن تقطع الألسنة الحداد اللائي سلقنه إلا بمزيد من تكريمه وتوكيد الثقة به ؛ وعهدت إليه برياسة بعث آخر أخطر من سابقه شأناً ..

(البقية في العدد المقبل)

محمود عزت عرفه

وزارة التجارة والصناعة

مصلحة المناجم والمحاجر

تقبل المصلحة عطاءات داخل مظروفات مختومة عن بيع حوالى ٣ طن من معدن الفلورسبار مخزونة الآن بمنجم العجلة بالصحراء الشرقية

ويمكن الحصول على شروط هذا البيع من مخازن المصلحة بالقاهرة مقابل مبلغ ٥٠ مليما عن كل نسخة على أن تقدم الطلبات على عرضحال تمغة فئة ثلاثين مليما.

وآخر ميعاد لقبول العطاءات في هذه المزايدة هو ظهر يوم ١٣ يونيه سنة ١٩٤٥. ٣٥١٨

ليلى والعبيط ويحيى

هي قصة اليوم
قصة النفس الحائرة
قصة الأديب الشقي السعيد
قصة الحياة كما هي
قصة الضحك والبكاء

دار المعارف للطباعة والنشر في ٢٧٢ صفحة
ثمنها ٢٥ قرشاً — تولى نشرها المؤلف

تطلب من : مكتبة المعارف ، والنهضة ، والانجلو ، والأهلية ، والتجارية ، وغيرها .

المؤلف : الياس عكاوي ١٧ شارع فؤاد الأول القاهرة تليفون ٤٣٩٠٩